بقلم: إيلان بابيه*

مأساة أوسلو وملهاة خارطة الطريق

حفل توقيع اتفاق أوسلو في البيت الأبيض.

في ولاية جورجيا، تم الإفراج مؤخراً عن مجموعة جديدة من الأوراق الخاصة للرئيس جيمي كارتر. هذه الأوراق تهتم أساسا بقمة كامب ديفيد ١٩٧٩، التي جمعت الرئيس أنور السادات ومناحيم بيغن. جوهر الأوراق الجديدة مذكرات تم إعدادها للرئيس، من قبل معاونيه المقربين، لمساعدته في قيادة القمة إلى معاهدة السلام المؤملة في الشرق الأوسط. مستشارو الرئيس لم يكونوا قلقين على مصير التفاوض الثنائي المصري الإسرائيلي، لكنهم كانوا قلقين من إمكانية الفشل في التوصل إلى صورة لحل يتعلق بمصير الضفة الغربية وقطاع غزة، بطريقة تحافظ على شعبية كل من الزعيمين في بلده.

هناك ثلاث نقاط أساسية تنبثق من هذا الحصاد الأرشيفي الجديد. الأولى هي أن السياسة الأميركية كانت ضد إقامة دولة فلسطينية مستقلة في تلك السنوات، وكانت مكتفية بحكم ذاتي فلسطيني تحت سيطرة إسرائيلية قوية ومطلقة. والثانية هي أن

* جامعة حيفا/ قسم العلوم السياسية، ورئيس معهد اميل توما للدراسات الفلسطينية والاسرائيلية.

دبابة إسرائيلية في «المقاطعة» برام اللّه.

المستشارين رأوا أن كلا الطرفين يحاول أن يتجنب موضوع السلام في الأراضي المحتلة: بيغن بالتركيز على تفاصيل غير مميزة، والسادات بتغطية غياب الفعل بخطابات درامية دون معنى. والنقطة الأخيرة التي يمكن استخلاصها من المادة المفرج عنها حديثا هي أن هناك قضيتين لم تكن لديهما أية فرصة للتسوية في القمة: الاحتلال الإسرائيلي الوحشي للضفة الغربية وقطاع غزة، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني ككل.

كان ذلك أواخر السبعينيات. وإثر بعض التغيرات الكونية الأساسية، أعيد إنتاج العرض ذاته في المكان ذاته، كامب ديفيد، بعد إحدى وعشرين سنة. الرئيس كلينتون ورئيس الوزراء إيهود باراك والرئيس ياسر عرفات تداعوا إلى اجتماع في كامب ديفيد بعد مرحلة طويلة من الصراع أطلقتها الانتفاضة الفلسطينية الأولى ضد الاحتلال العام ١٩٨٧ ووصلت ذروتها في الاعتراف التاريخي المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في أيلول١٩٩٣. قمة كامب ديفيد الثانية صيف ٢٠٠٠ ركزت على القضايا ذاتها التي بحثتها القمة الأولى. وجاءت هذه القمة في نهاية عملية أوسلو التي بدأت باقتراحات أكاديمية ساذجة تعتقد أن إنهاء الاحتلال في بعض المناطق سوف يفتح الطريق إلى مفاوضات جادة لإنهاء الصراع (بالتفاوض حول الوضع النهائي للأراضي المحتلة ومصير القدس وحل مشكلة اللاجئين). على أرض الواقع، تحول الاتفاق إلى شيء آخر، يذكر بما تم عرضه في القمة الأولى. جنرالات إسرائيل استغلوا تفوقهم العسكري لتحويل اتفاقات أوسلو إلى وسيلة لاستبدال الاحتلال المباشر باحتلال غير مباشر. كانوا مستعدين لتسمية الحكم الذاتي دولة، ولكنهم طالبوا بأن تتحول منظمة التحرير إلى مانع يحول بين إسرائيل وأية انتفاضات قادمة أو عمليات فدائية. وفي صيف ٢٠٠٠، طلب من الرئيس عرفات أن يحول هذه الوصفة إلى قانون ينهي حالة الصراع. وبالرغم من ضعفه الشديد في ميزان القوة العسكرية على أرض الواقع، فهم عرفات أنه لا يستطيع أن يستسلم لتلك الإملاءات التي تعني استمرار المعاناة بين الفلسطينيين، كمجتمع تحت الاحتلال، أو كمجتمع من اللاجئين. وكانت الانتفاضة الثانية حتمية.

والآن، وكأن التاريخ يتوقف، أو كأن الوعي الإنساني يتراجع: لدينا خارطة الطريق. إنها مجموعة برامج غريبة خرجت من الخطيئة والنوايا السيئة التي ليس لها توجه نحو إنهاء الاحتلال أو حل الصراع. وإذا كانت اتفاقات أوسلو بذرت في عقول الأكاديميين قاعدة من طموح شريف يهدف إلى حل الصراع، فإن خارطة الطريق أنتجت

من قبل سياسيين ساخرين كل منهم يتمنى لبرنامجها أن يبعد الأنظار المحلية وأنظار العالم عن أجندة أكثر قذارة. الرئيس الأميركي وفريقه من الصقور كانوا يبحثون عن تسلية بعد أن فشلوا في أن يسحبوا الأمم المتحدة والأنظمة العربية معهم في تطلعاتهم إلى السيطرة على نفط العراق، بحجة تخليص العالم من أسلحة الدمار الشامل وتخليص العراق من الطغيان. طريقة العمل تحولت إلى ما وصفه نعوم تشومسكي قديما بأنه الاستراتيجية الأميركية لاستبدال الجهد الحقيقي في تحقيق السلام، بـ «عملية سلام» دولية لا ثمار لها. الجهود الأميركية المبذولة في المنطقة انصبت على المفاوضات التي لا تكون معنية بالتوصل إلى تسوية، وإنما بخلق جو يوحي بمحاولة واقعية، دون أي اعتبار لما يجري على أرض الواقع. هذا الواقع يعني في هذه الحالة: الاحتلال الإسرائيلي الطويل جدا، المستمر كما هو، منذ العام ١٩٦٧، حيث بدأ انتهاكا مبرمجا للحقوق الإنسانية والمدنية. كانت تلك هي سياسة الإدارة الأميركية دائما، لكن حدا جديدا أضيف إليها في إدارة الرئيس بوش الابن. لقد تجمع لوبي منحاز لإسرائيل داخل وزارة الدفاع، لا يرغب في إدارة عملية عقيمة وحسب، ولكنه مهتم أكثر بالبحث عن طريقة يدعم بها التجمعات الأشد تطرفا في اليمين الإسرائيلي، من دعاة الإبعاد والضم.

كان ياسر عرفات يعرف أن الدعوة إلى كامب ديفيد صيف ٢٠٠٠ تعني أن يسحب منه قبول بتثبيت هذا الوضع الشديد السوء. لقد عرض عليه أن يحول السجن الصغير الذي خلقته عملية أوسلو (مناطق ا،ب،ج الشهيرة) إلى زنزانتي سجن ضخمتين، داخل الضفة الغربية وقطاع غزة، في ظل اتفاق كامب ديفيد؛ وكان من المفترض أن يغريه العرض بأن يكون حارس كلا الزنزانتين. رفضه تحول إلى انتفاضة ثانية.

لهذا السبب أصبح شارون شريكا متحمسا في خارطة الطريق. فهو في البداية، يظهر وكأنه وحكومته قد أكرهوا من قبل الإدارة الأميركية على قبول محاولة جديدة لإحياء اتفاقات أوسلو. لكن شارون، منذ أيام نتنياهو (١٩٩٦ ـ ١٩٩٩) أوضح أنه يرغب في أن يضم أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة، لا كاملهما، وأن يخلق جيوبا فلسطينية في المناطق التي لا تحتوي على وجود يهودي. في الوقت الحاضر، امتدت المستوطنات حتى إلى هذه الجيوب، لكن هذا لا يهم شارون. إن تتويجه كسياسي حكيم وقديم، جاء لينقذ إسرائيل من الانتفاضة الثانية، يؤهله للقيام بدور ساخر في محاولة جديدة، خارطة الطريق والاحتلال، بينما يجري على الأرض تدمير لحياة الفلسطيني ومجتمعه، بمباركة أميركية هذه المرة.

الآن، في أيلول ٢٠٠٣، وكأن ذلك ينبثق من الحادي عشر من ايلول ٢٠٠٢، وفي ظل عجز الأمم المتحدة وأوروبا، يسوق شارون وبوش فكرة أنه حتى هذه القطعة من الزيف في العملية السلمية لم تعد لها حاجة. لن يعملا جيدا من أجل دعم حكومة أبو مازن أو خارطة الطريق. إنهما الآن يربطان «حماس» بالقاعدة، وفلسطين بالعراق، وعرفات بطالبان. الخطوة التالية ستكون الاستغناء عن أبو مازن، وإبعاد عرفات، وضم مناطق يعتبرونها حيوية إلى الإشراف المباشر، بما في ذلك جزء كبير من قطاع غزة. إن السور العالي يهتم بتحديد بعض المناطق، ولكن الهدف الأهم من اختراعه قد يكون اختزال ١٠٪ إضافية من الأراضي التي تخص الفلسطينيين. هذا هو في الواقع ما يقدمه المستقبل. أما بالنسبة لتحالف بوش ـ شارون، فمن المحتمل أن تنضم الحكومة البريطانية فجأة إليه.

وفي حين تحاول بقايا الاتحاد الأوروبي أن تقاوم وقاحات بوش ـ شارون الأساسية، كما تفعل الأمم المتحدة ـ حتى وإن كان الممثلان في المشهد العالمي على استعداد لإمداد الأميركيين بالمظلة الرباعية مع روسيا ـ فإن بريطانيا تمضي في طاعة وراء الخط الأميركي في طريق غزو العراق. إن الفشل التام للغزو، والمستنقع الذي وقع فيه منذ ذلك الوقت، تحول إلى أزمة حادة في حالة توني بلير، وبدأ أثره يظهر الآن في حالة بوش. لم يستطع توني بلير أن يجد أسلحة دمار شامل قبل حرب العراق، وتوقف عن البحث عنها مبكرا بعد الاحتلال. هذا السياسي الكثير الكلام يتحول كلامه إلى الغمغمة عندما يطلب منه أن يفسر سبب غزو العراق. الورقة الوحيدة التي يسحبها هي السلام في فلسطين. وفي حركة مكشوفة لإساءة تفسير التاريخ، يعرض بلير خارطة الطريق كسبب رئيسي لغزو العراق. هذه الحيلة تستطيع أن تنجح فقط لو كان إغراء شارون وحمله على قبول الشرعية ممكنا. في أغسطس (آب) دعي شارون بكل حفاوة كضيف شرف في ١٠ داوننغ ستريت. التقرب من شارون بصاق في وجه الدبلوماسيين البريطانيين والخبراء داخل الوطن وفي فلسطين، وهم يرون كل يوم مسلسل الضحايا والدمار على يد شارون، منذ سمي وزيرا للدفاع العام ١٩٨١، وخلال ممارساته كوزير للإسكان، ثم للبنى التحتية، وأخيرا كرئيس للوزراء. في كل هذه المواقع، قام بتمويل الاستيطان الشرس ودعمه داخل الأراضي المحتلة، ومارس عقابا جماعيا وإذلالا للسكان الأصليين.

«في كامب ديفيد رفض عرفات أن يقف حارساً على زنزانتين».

من الممكن أن يكون مقبولا سماع جدل ما حول أن شارون تغير، ولذلك فإن لندن تساند العملية السلمية الحالية. ولكن لأنه كان هناك أمل في أن يتم إقناع الجمهور بأن يؤمن بوجود جبال من أسلحة الدمار الشامل في العراق، فإن بلير لم يتردد في تشبيه شارون بصدام (قبل أسبوعين فقط من زيارته). أما في الأسبوع ذاته، الذي فشلت فيه حملته للخداع حول العراق، فقد قام بتبييض جزار بيروت.

إذا كانت الطريق التي تقدم صك الغفران لشارون وإسرائيل وتعفيهما من إثم الجرائم التي تم ارتكابها ضد الأراضي المحتلة ستبدأ من ١٠ داوننغ ستريت، فإن ذلك سيعني أولا وغالبا حصانة إضافية لإسرائيل حتى تستمر، تحت مقولة السلام، أو دونها، في المزيد من التدمير والتطهير العرقي والمجازر الموجهة ضد الشعب الفلسطيني. ولمرة ثانية خلال خمسين عاما، سوف تتحمل حكومة بريطانية مسؤولية كارثة إنسانية تحل بالشعب الفلسطيني.

كان هناك بالطبع شركاء فلسطينيون في ملهاة خارطة الطريق، التي تعتبر مجرد تكرار لمأساة اتفاق أوسلو. لقد شاركوا في الملهاة، لأن اتفاق أوسلو كان قد أنجز معظم الضرر. وفي حين وفر الممثلون الدوليون حديثا عن سلام، تحولت فلسطين إلى بانتوستان(أجزاء جنوب إفريقيا خلال حكم البيض)، يخضع أهلها للعذاب على حواجز الطرق، وللموت من خلال العقاب الجماعي ـ بما في ذلك الموت جوعا ـ وللإصابات بواسطة الجنود الفرحين بأسلحتهم. كان ياسر عرفات يعرف أن الدعوة إلى كامب ديفيد صيف ٢٠٠٠ تعني أن يسحب منه قبول بتثبيت هذا الوضع الشديد السوء. لقد عرض عليه أن يحول السجن الصغير الذي خلقته عملية أوسلو (مناطق ا،ب،ج الشهيرة) إلى زنزانتي سجن ضخمتين، داخل الضفة الغربية وقطاع غزة، في ظل اتفاق كامب ديفيد؛ وكان من المفترض أن يغريه العرض بأن يكون حارس كلا الزنزانتين. رفضه تحول إلى انتفاضة ثانية. خارطة الطريق التي ولدت خلال ظروف لها علاقة بأزمة العراق، أكثر من علاقتها بما يجري على الأرض، قدمت العرض نفسه لأي شخص يكون مستعدا لأن يكون بديلا لعرفات في الحراسة. أولئك الذين تصوروا خطأ أنهم يستطيعون أن يفعلوا أفضل من «الريس»، هم الآن، أو سوف يكونون قريبا، واعين أن ميزان القوة والمزاج الإمبريالي الأميركي والشعور بالتفوق والفوضى الإقليمية هي التي تقرر اللعبة الدبلوماسية.

الطريقة الوحيدة للتعامل مع خطة تهدف إلى تثبيت الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، وإلى إبقاء معظم الفلسطينيين في حالة لجوء دائم، هي انتفاضة مدنية طويلة المدى، تحظى بحركة تضامن دولية قوية، تكون في مركزها، كما كانت حتى الآن، الحركات المناهضة للعولمة. هذا الدعم الشعبي سوف يملك أملا في أن يقنع الحكومات حول العالم ـ وربما المجتمع المدني الأميركي أيضا ـ بأن تفهم أنه ما دام الاحتلال القاسي مستمرا، فإن الطريقة الوحيدة لإنهائه هي أن تحول إسرائيل أولا إلى دولة منبوذة ـ كما تحولت حكومة البيض في جنوب إفريقيا قبل ذلك ـ وأن يلمح ثانيا، عبر رسالة واضحة، إلى أنها إذا لم تدفع ثمن جرائم الحرب التي ارتكبتها العام ١٩٤٨، والتي انتهت بالتطهير العرقي للفلسطينيين، فلن يكون هناك أي سلام لا للإسرائيليين ولا للفلسطينيين.